أبعاد الهوية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث

The dimensions of national identity in modern Algerian poetry

د. عبد القادر بوزياني
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف(الجزائر)
bouziaek@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/01/25 تاريخ القبول:2019/03/17 تاريخ النشر: 2019/04/01

ملخص :

لقد عانى الشّعب الجزائري من ويلات الاستعمار الفرنسي الذي حاول بشتى الوسائل والطرق إزاحة لغته العربية واستبدالها باللغة الفرنسية، وطمس هويته وانتمائه الحضاري.

فوقف الشعب متمردا ثائرا في وجه الظلم والاستدمار الفرنسي مضحيا بالنفس والنفيس في سبيل الحرية والاستقلال، مقدما نفسه رخيسة لهذا الوطن الغالي، وكان الشعراء والأدباء طلائع هذه الثورة المباركة، فصنعوا الملاحم الشعرية والقصائد النارية فكانت وقعها أشد عليهم من صوت الرصاص، تزلزل كيانه وتفضح جرائمه.

والشعر فنّ من الفنون الراقية، وبنية لغوية معرفية وجمالية، وفكرةٌ وعاطفةٌ وموسيقى وهو أداة فعّالة في الدفاع عن قضايا الإنسان أينما كان، وأداة تعبير عن همومه، بلغة مواكبة الحياة الفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية. فراح الشعراء يجسدون هذه الفترة ويسجلون معاناة الشعب وهمومه ويعبرون عن آلامه وآماله، وآفاقه وتطلعاته، فجاء النص الشعري واجهة نفسية شعورية، تتجاذبه أقطاب صوتية وتركيبية ودلالية.

وتعد "مسألة الهوية في الشعر الجزائري" طريقة حضارية لدحض كل الافتراءات والادعاءات الزائفة حول هويتنا وتراثنا لاسيما الأدبي والذي لم يكن وليد الأمس فقط بل هو امتداد لقرون عديدة وتراكم لمعارف كثيرة، والتي بلغ تأثيرها كل أقطار العالم.

من هذا المنطلق تأتي أهمية هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: أبعاب الهوية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث تناولت فيه: جولة مع الشعر ورسالته، ومعنى الهوية الوطنية في شعر الجزائري الحديث، والبعد الوطني فيه، وكذلك البعد الديني.

الكلمات المفتاحية: الهوية ;الشعر الجزائري ;الشعر ; الهوية الجزائرية ; أبعاد الهوية

Abstract:

The Algerian people suffered from the scourge of French colonialism, which tried by various means and means to remove their Arabic language and replace it in French, and to obliterate their identity and their cultural affiliation.

The people stood up in revolt against French oppression and self-sacrifice, self-indulgent in the cause of freedom and independence. The poets and writers were the pioneers of this blessed revolution. They made poetic epics and firecrackers, and they were stronger than the sound of bullets, shaking their bodies and exposing their crimes.

These poems also inflamed the conscience of the Mujahideen and the militants and pushed them to sacrifice for freedom, dignity and dignity.

Poetry is an art of fine arts, a linguistic, cognitive and aesthetic structure, an idea, passion and music. It is an effective tool in defending human issues wherever it is, and a tool to express its concerns in a language that keeps pace with intellectual, social, cultural and political life. Poets began to embody this period and record the suffering

of the people and concerns and express the pain and hopes, and prospects and aspirations, came the poetic text poetic psychological interface, attracted by poles vocal, synthetic and semantic.

The "issue of identity in Algerian poetry" is a civilized way to refute all false fabrications and claims about our identity and heritage, especially literature, which was not only born yesterday, but is an extension of many centuries and the accumulation of many knowledge, which affected all countries of the world.

From this point of view, the importance of this research paper is as follows: The National Identity in Modern Algerian Poetry: A tour with poetry and its message, and the meaning of national identity in the modern Algerian poetry, the national dimension, and the religious dimension.

Keywords ; national identity; Algerian poète ; Algerian identity ; dimensions of national identity ; poète

مقدمة

الشعر فنٌّ من الفنون الراقية، وهو أداة فعّالة في الدفاع عن قضايا الإنسان أينما كان، وأداة تعبير عن همومه، وفكرةٌ وعاطفةٌ وموسيقى، وأداة اتصالٍ وتواصلٍ بين الأشخاص والشعوب. كما أنه لغة الوجدان. فالشعر لصيقٌ بحياة الإنسان، وبمسيرة الإنسانية، وبمصيرها. فهو في أحد أهم وجوهه، نتاج ظروف تاريخية واجتماعية.

وذلك من منطلق أن الشعر هو جزء من الفعل الاجتماعي، وأحد الحقول الاجتماعية المهمة، ويخضع في إنتاجه وتلقيه إلى عملية مركبة من التواصلية والتفاعلية. بمعنى آخر، لا ينبغي التعامل مع المنتوج الأدبي الإبداعي، كما لو كان منغلقًا على نفسه، متركزًا فيها، ولا يرتبط بأي شيء خارجه.

فالشعر لغة خاصة لها وظيفتان؛ وظيفة معرفية، ووظيفة فنية جمالية، وكل وظيفة تخدم الأخرى، فالشعر يحمل دلالة ثقافية أو سياسية أو اجتماعية، وينسقها وفق نسق معين هو الأسلوب، فدراسة الشعر هي فصل الأبعاد الموضوعية عن الظواهر الأسلوبية، لكي تتضح البنية العميقة للخطاب ويمكن حينئذ إحصاء الظواهر الأسلوبية وتقييمها، ومدى مشاكلتها لمواضيعها، أو مدى تشكل المواضيع من خلالها.

لقد عانى الشّعب الجزائري لمدة قرون من ويلات الاستعمار المتعاقبة، بدءاًبالرومان وصولاً إلى الاستعمار الفرنسيّ، أفقدته سيادته وأُقصي عن المشاركة في بناء وتسيير الدولة ووضعِ أسسها ومعالمها، عملت جميعها على طمس هويته، وانتمائه ولغته لكن رغم كل ذلك احتفظ بهويته من انتماء ولغة ودينٍ، وعرف وحدة وتكاملا شعبيا حقيقيا بعيدا عن الصراعات الإثنية والطائفية.

عرف الشعر العربي في العصر الحديث مدارس وتيارات واتجاهات عدة، ظهرت بشكل متعاقب منذ بداية عصر النهضة في الفضاء العربي الإسلامي؛ لذلك، فإن عصر النهضة يمثل تاريخًا مفصليًّا في تاريخ الشعر العربي ككل، وعاملًا مهمًّا في انبثاق النهضة الأدبية في العصر الحديث، خصوصًا أنه بعد عصور ازدهار الشعر العربي

التي تعود إلى الشعر القديم الجاهلي وصولًا إلى الشعر العباسي، شهدت الحياة الأدبية العربية نوعًا من الخمول والضعف، أصاب اللغة العربية والكتابة الشعرية والنثرية، ومس كذلك اتجاهات الثقافة الشعبية التي كانت تجنح إلى الإنتاجات الهزلية والخرافية، الشيء الذي مثل بدوره سببًا أساسيًّا من أسباب ظهور النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر، وأكد الحاجة إليها، إذ النهضة مدلوليًّا تشير إلى حالة من التعارض مع ما سبق، وإلى طموح تجاوز حالة الوهن الحضاري وملامحه الدالة عليه كافة.

مفهوم الخطاب الشعري: اهتمت الدراسات الأدبية الحديثة بمذاهبها وتياراتها المختلفة؛ اللسانية والسيميائية والبنيوية والتفكيكية وغيرها بالخطاب الشعري الأدبي، وعناصره المكونة له وبنيته ووظيفته، والتمييز بين مختلف أنواع الخطاب وقد أدى ذلك إلى تشكيل ركام هائل من المقولات التي تتناول الخطاب.

الخطاب لغة : من أهم معاني الخطاب "المحاورة"، جاء في لسان العرب: "الخطاب والمخاطبة؛ مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان، ونجد هذا في قوله تعالى: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾ سورة ص، الآية20. فالمعنى هنا هو الحكم إما بالبينة أو اليمين، وقد قيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده، أو هو الفقه في القضاء.

وقيل أيضا: «فصل الخطاب"هي عبارة أما "بعد"، وكأنما يقصدون الفصل بين المقدمات وصلب الموضوع الذي يتكلم فيه الخطيب» [(1)].

أما ما ورد في المعاجم اللغوية الفرنسية عن معاني الخطاب: «فإن كلمة Discours ذات الأصل اللاتيني Discursus المأخوذ بدوره من الفعل Discurrere الذي يعني «الجري هنا وهناك أو الجري ذهابا وإيابا، فهو فعل يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي وإرسال الكلام والمحادثة الحرة والارتجال»[(2)].

وتشترك اللغة العربية والأجنبية في تضمن مفهوم الخطاب للتلفظ والقول بين طرفين: أحدهما مخَاطِب والآخر مُخَاطَبٌ. أمّا مصطلح "النص" فهو يدل على معنى الظهور والارتفاع والانتصاب، وهذا ما جاء في لسان العرب: «نص الحديث ينصه نصا أي رفعه، والمنصة ما تظهر عليه العروس لترى، وأصل النص أقصى الشيء وغايته»[(3)]، أما كلمة Texte فهي من الأصل اللاتيني Textus وقد كانت تعني النسيج .

الخطاب اصطلاحا : الخطاب على المستوى البسيط « كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو ملفوظا»[(4)]، فهذا التعريف يركز على الجانب الكمي المادي للخطاب.

الخطاب الشعري ومكوناته : اعتمد كثير من النقاد مفهوم الخطاب الشعري تنظيرا وتطبيقا، مستندين إلى التراث النقدي والبلاغي والنحوي والعروضي في قراءة هذا الخطاب، ولئن اعتبر ذلك خروجا عن المناهج الحديثة إلا أن هذا الإجراء يسعى إلى تأسيس منهج يرتكز على آليات مستمدة من المادة الأصلية والإرث الثقافي العربي، وفي اجتهادهم هذا كان عليهم التوفيق بين المناهج النقدية الحداثية كالأسلوبية والسيميائية وبين الأدوات الإجرائية

التي ينبغي أن تضاف إلى المناهج لتكون أدوات لتفكيك النص وكشف مختلف أبعاده، وتجتمع في تكوين الخطاب الشعري عدة عناصر تتداخل لتؤسس شاعريته وتؤكد تميزه، وهذه العناصر هي:

- 1 **اللغة**: ذلك أن الخطاب أيا كان هو خطاب باللغة، والقصيدة هي مجموعة كلمات والأسلوب هو تأليف لهذه الكلمات، وكلما كان الخطاب شفّافا كان عاديا، وكلّما كان كثيفا يستوقفنا شكله كان خطابا شعريا، لذلك كان ريفاتير يرى: «أن الخطاب الأدبي هو لعب بالكلمات»[5]، وإذا كان هذا الكلام ينطبق على الخطاب الشعري عامة، فإن هناك من يرى « أن الشعراء التقليديين كان خطابهم أقرب إلى المباشرة والكلام العادي »[6].

- 2 **الموسيقى**: ثاني أهم عنصر في بنية الشعر منذ القديم إيقاعه وموسيقاه « والبعض يرى بأن الشاعر يعاني القصيدة كنغم أولا، ذلك أن هذا النغم الذي ينبثق من أعماق الشاعر ويملأ وجدانه هو التعبير الأولي عن المشاعر التي تجيش في نفسه حيال المحرض »[7].

- 3 **الصورة الشعرية**: تعتبر الصورة الشعرية مكونا بنيويا أساسا في الخطاب الشعري، ولئن اعتبرت أداة للشرح أو التعليل أو أداة للزخرفة – وهذا اعتبار القدماء - فإذا حسب النقد الحديث عماد البناء الشعري وفيها تتفاعل بقية العناصر .

- 4 **التناص وإنتاج المعنى**: التناص هو: «وتعالق نصوص مع نص حديث بكيفيات مختلفة»[8] . وهو ذا الاعتبار مصطلح حديث جامع لمفاهيم قديمة: الإحالة، الاقتباس، التضمين والسرقات، فالكاتب يعيد إنتاج نصوص سابقة في نص جديد مكون من عناصر الخطاب الشعري، وكثيرا ما يتعمد بعض المبدعين كشف تناصهم وذلك بالإحالة المباشرة، كما لا يقتصر التناص على الخطاب الشعري وحده بل يتعداه إلى كافة أشكال الخطاب الأخرى، ويرى بعض الباحثين المعاصرين «أن إنتاج المعنى خاصية تميز الخطاب الحداثي، الذي يكون معناه محصلة لبقية العناصر، خلافا للخطاب الكلاسيكي الذي ينشئه صاحبه ليعبر عن معنى موجود سلفا»[9].

الهوية الوطنية في شعر الجزائري الحديث: إن "مسألة الهوية في الشعر الجزائري" هي طريقة حضارية لدحض كل الافتراءات والإدعاءات الزائفة حول هويتنا وتراثنا لاسيما الأدبي منه؛ والذي لم يكن وليد الأمس فقط بل هو امتداد لقرون عديدة وتراكم لمعارف كثيرة، والتي بلغ تأثيرها كل أقطار العالم.

ومن المؤكد أن قضايا الشعر الجزائري الحديث مرتبط ارتباطا وثيقا بالثورة ضد الاستعمار الفرنسي وما قام به من طمس للهوية الوطنية، والبعد الديني والحضاري للشعب الجزائر، فكان لزاما على الشعراء إظهار كلمتهم في مجابهة المستعمر، والتغني بالعروبة والاعتزاز بهذا الانتماء الذي كان عن طريق الدين الإسلامي، فكان الاعتزاز بالعربية اعتزازا بالإسلام كذلك. ودافعوا عن هذه الثوابت وسعوا إلى ترسيخها في أذهان الناس، وتحقيق الاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية والانتماء الحضاري وإثبات الهوية، فكانت العناصر الثلاث لثوابت الأمة الجزائرية المنبع الأصيل للعديد من القصائد الشعرية.

وتبيّن لنا أنّها الفترة الخصبة التي أنجبتْ أكبر الشعراء في الجزائر خلال القرن العشرين، في أغلب التّصنيفات النقديّة الجزائريّة، من بينهم محمد العيد آل خليفة، ومفدي زكريّاء، صاحب النشيد الوطنيّ "قسَماً"، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد الهادي السنوسي، والطيب العقبي، وإبراهيم أبو اليقظان، وأحمد مكّي الجنيد، ومحمد الأمين العمودي، وإبراهيم نوح، وأحمد سحنون، وابن السايح محمد اللّقّانيّ، وابن الغزالي أحمد كاتب، وابن دويدة محمد مسعود، وابن بسكر محمد، وأحمد ابن ذياب، وغيرهم ممّن لا يتّسع المقام لذكْر أسمائهم جميعاً.

فكان الشعراء الجزائريّون، وهم ضمير الأمّة الحيّ، ووعيُها المدرِك، ينظرون إلى شعوب أخرى وقد انتفضت وثارت، وتاقتْ إلى نيل الحريّة والاستقلال، فإذا هي تنبِذُ الاحتلال الغاشم وتواجهه بكلّ ما تملك من تضحيات بالنفس والنفيس.

البعد الوطني والقومي في الشعر الجزائري الحديث: يعتبر الشعر ديوان العرب المخلد لتاريخهم ومآثرهم وأيامهم، فهو أحد أبرز الأقطاب الشعرية لما يحمله من معان سامية عبر سنين طويلة؛ قبل وبعد الثورة التحريرية، وما زال يساير الحركات التحررية عبر العالم إلى يومنا هذا. فالشعر مرآة عاكسة لواقع المجتمع وما يجري فيه من أحداث ووقائع تظل شاهدة على التاريخ. وما تحدثه من انطباعات وأفكار في النفس مما يجعله صادقا بكينونة الأمة وذاتها ومنه فقد اكتسبت الثورة العربية صورة العمق والأصالة. حيث أنّه كان عنوانا للمناصرة والصمود والكفاح لزمن الثورة، وكان يتميز بقضايا عديدة سواء قضايا الأمة العربية أو قضايا إنسانية أخرى، "فنقول أن البعد الوطني في شعر الثورة تخصص به الشعر الجزائري ويقوم على تعبير أبناء الجزائر من الشعراء عن قضيتهم الوطنية في مقاومتهم الاحتلال الفرنسي، فكثيرة هي الأشعار الجزائرية التي حملت النزعة الوطنية ومن الأقلام الشعرية التي تناولت الثورة الجزائرية بالتمجيد والإشارة بروح وطنية معتزة ببلدها الجزائر، شاعر الثورة مفدى زكريا في الإلياذة التي تغنى فيها وهو القائل عن حبّ للجزائر في **"إلياذة الجزائر"**[10]:

جزائر، يا مطلع المعجزات *** ويا حجة الله في الكائنات

ويا بسمة الرب في أرضه *** ويا وجهه الضاحك القسمات

ويا وجهه في سجل الخلو *** د، تموج بها الصور الحالمات

ويا قصة بث فيها الوجود *** معاني السمو بروع الحياة

ويا صفحة خط فيها البقاء *** بنار و نور جهاد الأباة

ويا للبطولات تغزو الدنا *** وتلهمها القيم الخالدات

ويا أسطورة رددتها القرون *** فهاجت بأعماقنا الذكريات

ويا تربة تاه فيها الجلال *** فتاهت بها القمم الشامخات

وألقى النهاية فيها الجمال *** فهمنا بأسرارها الفاتنات

وأهوى على قدميها الزمان *** فأهوى على قدميها الطغاة

وأشاد الشاعر مفدي زكريا بأرض الجزائر الطيبة الساحرة وبطبيعتها الخلابة وجنانها الجذابة فكانت جنة من جنائن بابل الأسطورية:

جزائر يا بدعة الفـــاطر *** ويا روعة الصانع القـــادر

ويا بابل السحر من وحيها *** تلقب هاروت بالساحـــر[11]

لقد تَعَدَّت سمعة الثورة الجزائرية ضد الحلف الأطلسي حدود الوطن إلى المحافل الدولية العالمية وأصبحت حديث اجتماعاتهم وملتقى مؤتمراتهم وسمر سهراتهم، حيث أضاءت محور الكون بنورها ونارها التي استلهمتها من التضحيات الجسام لهذا الشعب الأبي الثائر في صمت وهدوء، محب لأرضه وشعبه، وهذا ما جسده الشاعر مفدي زكريا في قوله:

ويا ثورة حار فيها الزمان *** وفي شعبها الهادئ الثـائر

ويا وحدة صهرتها الخطو *** ب فقامت على دمها الفائر

شغلنا الورى

ومألنا الدنـا

بشعر نرتله كالصـــلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر[12]

وقام الشاعر محمد بالقاسم خمار بالدعوة إلى الحرب ضد الاستعمار الفرنسي، وتحطيم أغلال الطغيان والإستدمار، ونشر الرعب في نفوسهم، دون التفكيري في عواقبها، في قصيدة "إلى الأمام" بقوله:

صيحة كالرعد دوت للأماني للرجال

من شعاب الأرض... من فوق الروابي والجبال

من صميم الغيظ... من قلب الدواهي والليالي

من جروح الثأر... من أعماق مهتاج وقالي

من رماء المجد... والأقدام من شوق المعالي[13]

فالشاعر في هذه الأبيات يتغنى بالثورة التي أبهرت العالم، فكانت ملهمة لهؤلاء الشعراء.

أما الشاعر "مالك حداد" فيشيد بالثورة الجزائرية العظيمة، ويعتبرها لحظة مقدسة توهب له الحياة فيها يحيا، فهي داره ومستقره الذي يأوي إليه، ويحمل فيها أحلامه وبؤسه وآماله فجسد ذلك في هذه القصيدة بقوله:

إني لأعشق تلك اللحظة التي تهبين الحياة.

سأسمي تلك اللحظة

أصغوا إذن

سّدوا آذانكم جيدا

وافتحوا قلوبكم على مصراعيها

سأسميها ؟ رفاق الذين سأعانقهم عن قريب

سأسميها ؟ داري حيث تنتظرين أمي بصري

نافذ سأسميها ؟ رفيقة القيثارات المحطمة

سأسميها الجزائر[14].

أما الشاعر صالح خباشة فيعبر عن الثورة الجزائرية بمثابة صرخة للثوار تواكبها طلقات المدافع والرشاشات الهادر لذّود عن حمى أرض الجزائر وعن شعبها الطاهر، الذي لا زال صامدا في وجه المستعمر الغادر، دافعا ضريبة الدم والنفس في سبيل الحرية والنصر المظفر، فقال:

اسمعوها صرخة من كل ثـائر *** صرخة المدفع والرشاش هادر

وحدة القطر وشعبي في الجزائر *** غاية الثوار في أرض المفاخـر

يا بلادي أنا أقسمت بثـأري *** أنا دون النصر لا تخمد ناري

فاسمعاها صرخة من كل ثـائر *** لن تنالوا أي شبر في الجزائـر[15]

نتوصل من آراء الشاعرين الجزائريين "مالك حداد" و"صالح خباشة" أن الجزائر بالنسبة لهم هي الدار والوطن الذي كرسوا حياتهم من أجل استقلاله، وانطلقت أقلام شعرهم وأدبهم ترصد نار الظلم والطغيان وتصور مآسي واضطهاد الشعب وجرائم فرنسا، وكانت كلما تزداد نار الثورة اشتعالا؛ تزداد معها الأقلام الأدبية سيلانا في كل مكان.

أما الشاعر "محمد الأخضر السائحي" فكان يناجي وطنه ويخاطبه على لسان متأثر لا يبالي بالموت ولا يخافها بل على الأرجح أنّه اختار طريق النّضال والكفاح والصمود في وجه العدو، فدمه وحياته وكل ممتلكاته فداء وطنه الحبيب ، حتى وإن مات من أجله فأبناءه سينعمون بالحرية والاستقلال بعده، ويعيشون حياة مليئة بالعزة والكرامة، فذكر هذه الأبيات قائلا:

أنا حّد وهذه الأرض أرضي *** سوف أفدي حياتها بحياتي
سـوف أبني أمجادها وأروي *** بدمائي مروجها النـظرات
أنا إن مت هاهنا اليوم فابني *** سوف يبقى وسوف تبقى بناتي[16]

وخلاصة القول أن الشاعر "محمد الأخضر السائحي" تولدت عنده نفس النظرة المتمثلة في اختياره درب النّضال والثورة ضد المستعمر الفرنسي الغاشم الظالم.

لقد كان للوطن حضورا مكثف في الشعر الجزائري القديم والحديث وحتى المعاصر، فكثرت البكائيات على ضياعه منذ دخول الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر، وتوالي ذكره في شعر الثورة المباركة، وهذا ما أكده الشاعر مفدى زكريا بقوله:

قل للجزائر وأصغ إن ذكر اسمها *** تجد الجبابرة ساجدين وركعا
إن الجزائر في الوجود رســـالة *** الشعب قررها وربك وقـعا
إن الجزائر قطعة قدسية في الكون *** لحنها الرصاص ووقـــعا

تتعدد أبعاد موضوع الوطن في الشعر الجزائري المعاصر في تعامله مع الوطن امتدادا لحنين الشعر العربي القديم والحديث إلى المكان؛ ووقف شعراء الأطلال وبكاء الديار.

أمّا بالنسبة للبعد القومي فإن القومية العربية واحدة من الروابط التي تجمع مجموعة كبيرة من شعوب تنتمي إلى العروبة بصلة وثيقة فالقومية إذا هي "حب الأمة والشعوب بارتباط وطني نحوها " حيث أنها تجمعهم مقومات متأصلة في جذور التاريخ.

وعلى هذا النحو، قام الشعراء العرب يمجدون ثورة الجزائر ويصفون إحساسهم إزاء نارها الملتهبة التي تحرق العدو وتشعل شمعة مجد الجزائر معتبرين قضية الجزائر وحربهم هي قضيتهم الخاصة وحرب العرب عموما ضد قوى الظلم والطغيان.

كما وصف دوي الرصاص في ساحة الوغى بالزغاريد، فها هو شاعرنا مفدى زكريا يثبت للرأي العربي عروبة الجزائر وكفاحها الذي هو امتداد لكفاح الأمة العربية بأسرها ضد الظلم والطغيان فلا يكتمل العز العربي إلا باستقلال الجزائر، فهذا الشاعر مفدى زكريا يقول:

ويا عربي في بلاد شقيقـــة *** عروبتنا من يستطيع لها نكرا؟
فما حربنا إلا امتدادا لثــورة *** أرادها من كان يخذلنا خسرا
فلسطين في أرض الجزائر بعثها *** فمدوا يد نخم المعاقل والثغرا[17]

لأن الشعوب العربية ستقف في وجه العدو من أجل عزتها وكرامته، فأمة العرب شرفها السامي توضح من خلال الثورة الجزائرية التي باتت مفخرة كل العرب وهؤلاء الشعراء غدو مفخرة العالم، قال الشاعر مفدى زكريا:

فحري الّذر للشعب دم *** عربي في الوغى يضطرم
واسفحيه في الثرى وابتسمي *** يا فرنسا فغدا ينتــقم
كل شعب جثم الضيم به *** فسبيل العز قيــد ودم
أمة العرب تسامت شــرفا *** يفخر الدهر بها والأمم[18]

نتوصل من خلال هذا الحديث إلى أن الشاعر الجزائري ملتزم بقضايا مصيرية، وهي الدفاع عن الوطن والوقوف في وجه المستعمر مهما كان؛ وطرده بشتى الطرق والوسائل وذلك بواسطة الشعر والتعبيري والقلم والتحلي بالشجاعة الأدبية والإبداعية وذلك من أجل فرض قوته أمام هذا الشعب المستبد.

البعد الديني:

البعد الديني قائم في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر لما يتميز به الشعراء الجزائريون من حبّهم للإسلام فكانوا يحفظون القرآن الكريم؛ والأحاديث النبوية الشريفة، ودرسوا الشعر العربي القديم وشعر صدر الإسلام، والشعر الأموي، وشعر العصر العباسي، واطلعوا على أعمال الشعراء السابقين، وتأثروا بهم واقتبسوا عنهم، واحتجوا بأفكاركم.

وهذا ما وظفوه في أشعارهم فراحوا يرددون معاني آي القرآن الكريم في أشعارهم، وهذا يدل على نشأتهم الدينية فشربوا من النبع الصافي وتربوا في بيئة إسلامية، مما جعلهم يضفون على أحداث الثورة الجزائرية طابعا إسلاميا مميزا، معتبرين ضحاياها شهداء، وكفاحكم ضد الظلم والطغيان جهادا في سبيل الله، وهذا ما جسدته قصيدة مفدي زكريا التي "نظمها بمناسبة الذكرى الثالثة للثورة سنة 1927م وهو في سجن البرواقية" [19]، مشيها فيها ليلة أوّل نوفمبر بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، لأن فيها ينجلي الحق للعيان، الحق في الحرية والكرامة، كما انجلى فيها الحق الإلهي في عبادة التوحيد للخالق سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

دعا التاريخ ليلك فاستجابــا *** نوفمبر هل وفيت لنا النصابا؟
وهل سمع المجيب نداء شعب *** فكانت ليلة القدر الجــوابا؟
تجلى ضاحك القسمات تحكي *** كواكبه، قنابله تهـــابا
همزت الثورة التحرير شعبــا *** فهب الشعب ينصب إنصابا[20]

فالشاعر مفدى زكريا يؤمن بان اندلاع ثورة التحرير انصياعا من الشعب الجزائري للأمر الإلهي، لأن الله هو الذي أمر باندلاعها، هدفها إعلاء كلمة الله ورفع راية الدين الإسلامي في بلاد أراد الاحتلال الفرنسي أن يطمس هذا الدين ويبدله بالديانة المسيحية، وهنا شبه الفاتح من شهر نوفمبر بليلة القدر، وقدسيا قداسة غزوة بدر المباركة، التي رمت بالشرك والكفر والطغيان جانبا، وأعلنت راية الإسلام والحق خفاقة في ربوع الوطن الحبيب، وجاء هذا في قصيدة إلياذة الجزائر قائلا:

تَأَذَّنَ رَبُّكَ ليلةَ قَـــدْرِ *** وألقى الستار على ألف شهر

وقال له الشعب: أمرك ربي *** وقاله الرب: أمرك أمــري

نوفمبر غيرت مجرى الحياة *** وكنت نوفمبر مطلع فجـر

وذكرتنا في الجزائر بــدر *** فقمنا نضاهي صحابة بدر(21)

من خلال هذه الأبيات يؤكد الشاعر مفدى زكريا في "إلياذة الجزائر" أن نوفمبر غَيَّرَ مَجْرَى الحياة من الظلامات المستعمر إلى الكفاح والاستشهاد في سبيل الله وفي سبيل الوطن. فكان مطلع فجر ونور، حفر في ذاكرة الجزائريين وفي تاريخهم العظيم.

ولم يقف الشاعر مفدى زكريا عند هذا الحد بل راح يدعو أبناء وطنه إلى الجهاد والكفاح من أجل رفع كلمة الله، والوقوف ضد المستعمر الغاشم طالبين الاستشهاد في سبيل الله والوطن، لإخراج بلادهم من محنة الاستعمار. حيث قال:

وقال الله كن يا شعب حــربا *** على من ظل لا يرعى خبابـا

وقال الشعب: كن يا رب عونا *** على من بات لا يخشى عقابا

نجد أن الشاعر مفدى زكريا وقف في مكان آخر ليبطل الأقاويل والتهم التي وجهت للشعب الجزائري الذي كان دوما يدعوا الله عز وجل بالإعانة والاستغاثة، وكان عادلا وصادقا في دعوته، وهذا راجع لخصاله الإسلامية. قال:

فلا نرضى مساومة غبـنا *** ولا نرضى لسلطتنا اقتضابا

ولن نرضى شريكا في حمانا *** ولو قسمت لنا الدنيا منابا

نستنتج من هذين البيتين أن الشاعر مفدى زكريا رَكَّزَ على فكرتين رئيسيتين في قاموس الأخلاق الإسلامية، وهما العزة لله ورسوله والمؤمنين فقط، والابتعاد عن الطمع والجشع.

أمّا الشاعر "صالح خريف" فيؤكد في قصيدة الجزائر ومولد الرسول" أن ثوار الجزائر ما هم إلا امتدادا طبيعي لمجاهدي الأمة الإسلامية الأوائل، ثاروا من أجل الحق وإحياء الإسلام وإعادة أيامه الحافلة بالأمجاد والبطولات، حتى تخالهم عين الناظر إليهم أنّهم جزء لا يتجزأ من مجاهدي بدر وأحد، قال :

ففي أرض الجزائر خير جنـد *** يقيم لغابر الجزائر الإسلام ذكـرى
كأنّك فيهم (بعلي) ينـادي *** لقد وعد الله الإله الخلق نصــرا
وسيف الله يزكيها فيمـضي *** كأسرع من وميض البرق ســرى
فليت العين منك رنت إليهم *** إذ لتـــــذكرت أحد وبدرا[22]

وسار الشاعر "رمضان حمود" على خطى أقرانه شعراء الجزائر الثائرين في قصيدته المعنونة "علام تلوم الدهر" التي يصور فيها الحالة المزرية التي وصل إليها المجتمع الجزائري من تنكيل وتشريد وضعف وقهر وظلم من الاستعمار الفرنسي، فهو يرفض فكرة التواكل ويعتبره ضعفا وعجزا، بل يؤكد على الأخذ بالأسباب، رافعا صوته في وجه الأشرار والفاشلين الذين يرجعون كل شيء إلى قضاء الله وقدره، كما يلوم الذين لا رأي لهم، ويرضي بكل شيء يفعله الآخر.

وهذا ما ذكره بقوله: [23]

علام تلوم الدهر والله عالم *** وتنسب للإسلام ما هو باطل
وتملأ وجه الأرض رطبا ويابسا *** بكاء وهل تجري الدموع الهواطل
ونجزع للمكروه من كل حادث *** وما ذاك إلا مـا جزته الأنامـل
فلن يظلم الله بعباده لحكـمه *** ولكن كفر المرء للمــرء قاتــل
ونزعم أنا مسلـــمون وديننا *** نغيث به الأهواء والكــل ذاهـل
ونبغي حياة الغر والجهل دأبنا *** وهل نال عزّا في البسيطة جاهل
نسير وراء النائقين تهالــكا *** لنحظى ببعض الشيء والشيء سافل

تظهر لنا مقطوعة الشاعر رمضان محمود واقع الشعب الجزائري المغلوب على أمره، كما يبين حقيقة الشاعر الجزائري الغيور على دينه وقومه.

أما الشاعر محمد العيد آل خليفة فهو رائد من رواد الشعر العربي الحديث، نظم قصيدة طويلة سماها "حزب مصلح" ألقاها بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الجزائر في منتصف الثلاثينات وهذه الحادثة صادفت ميلاد هذا المؤتمر، فهزت أعماق الشاعر، وكانت بشرى بالنصر القريب. قال فيها[24]:

سر مع التوفيق فهو الدليل *** حصحص الحق وبان السبيل
عاطني السراء كأس بكأس *** وساقينها إنها سلسبيل
زال عن موقفنا كل ريـب *** فهو كالمرأة صاف صقيل
إن قوما بالدم اتهمــونا *** وزرهم يوم الحساب ثقيل

أو ردونا موردا مسـرتابا *** طعمه مر المذاق وبيل

وإبتلونا بالأذى وصـمدنا *** للأذى وصمدنا قليــل

نجد أن الشاعر محمد العيد آل خليفة وظف التعليم الدينية حديث في قصيدته فجاءت مفعمة بحرارة الفكرة وشرعيتها.

أما الشّاعر محمد بالقاسم خمار فقد انصهر بقوة الدين وتعاليمه في إنجاز أفكاره، ويتجلى ذلك في هذا البيت:

جهادا وبذلا واحتمالا وجرأة *** تحز لها أغنى الصبيان وتدحر[25]

نتوصل إلى أن الشاعر بالقاسم خمار يفخر بقيام الثورة التي اتصف فيها المجاهدون بالصرب وقوة الإيمان من أجل تطهير الأرض، فلفظة تفخر تدل على الاستسلام لمن كانت قوته أكبر، وهذا مأخوذ من معنى الآية الكريمة : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، سورة مريم الآية:58.

ومعنى ذلك أن الجهاد والكفاح يكون خالصا لوجه الله تعالى، لذا يجب على المجاهدين إرضاء الخالق، فهو القادر على منح الفوز والنجاح، قال بالقاسم خمار:

ونادي المنادي... يا جزائر أبشري *** فمالك بعد اليوم إلا التحررا[26]

يتضح لنا من خلال هذا السياق الشعري أن شهر نوفمبر لقب شهر تموز، وأن النصر من عند الله، ومن ينصره الله فلا غالب له، كما تقول الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، سورة آل عمران، الآية: 126.

نخلص إلى أن البعد الديني في الشعر الجزائري الحديث كان مفعما بحرارة الفكرة ومشروعيتها، متأثرا بقوة الدين وتعاليمه، مستلهما أفكاره من القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة، اتخذ نهج المجاهدين الأوائل متأثرا بقيمهم وأخلاقهم من تضحيات بالنفس والنفيس في سبيل الحرية والعزة والكرامة، ونشر الدعوة الإسلامية. وصبر على الشدائد، وإيمان راسخ بقوة الله وقدرته على نصر عباده المظلومين.

خاتمة:

وفي الختام نتوصل إلى أن الشعر الجزائري الحديث شهد تطورا هاما في جانبيه الفكري والفني طوال نصف قرن (1925 . 1952). نتيجة ثورة التحرير المباركة التي أعطته زغما من الأفكار النيرة والصور الفنية المعبرة عن معانات الشعب الجزائري من ظلم الاستدمار الفرنسي الغاشم وسياسته الطاغية اتجاه الشعب بالقهر والنار والحديد، ومحاولته العديدة من المرات طمس معالم الهوية الجزائرية والانتماء الحضاري للأمة العربية

الإسلامية، تصدى لها مجموعة من الشعراء الوطنيين حاملين على عاتقهم لواء الدفاع عن المبادئ الإسلامية والانتماء إلى الأمة العربية يؤكد ذلك قول الإمام عبد الحميد بن باديس:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

همهم تحريض النّاس على الجهاد في سبيل الله، والحرية، فكان سلاحهم القلم، مدافعهم العبارات والكلمات سجلت بطولاتهم ومآثرهم التي اندهش لها العالم واقتادت بها الشعوب التواقه للحرية والاستقلال عبر العالم.

فجاءت أشعارهم صادقة صدق العواطف كاشفة عن نيات المجاهدين المؤمنين إيمانا راسخا أن ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة، وأن الحرية تؤخذ ولا تعطى، وأنّ هؤلاء الشعراء تأثروا بمن سبقوهم من الشعراء في الدعوة إلى الجهاد ضد المستعمر وفي منهج اقتراض الشعر وتصوير المشاهد ونقل المعاناة للتأثير في النفوس وحمل البنادق والفؤوس لمحاربة الاستعمار الفرنسي. فطاوعتهم أفكارهم وأضفوا عليها من قوقعة أسلوبهم جمالا إبداعيا معبرا عن المشاهد الدرامية، فخرج شعرا جزائريا مميزا بصوره الجمالية وتعابيره المؤثرة؛ كان الوجه الحقيقي للوضع الجزائري الذي يعانى منه الشعب، وانعكاسا طبيعيا لمرحلة حاسمة من تاريخ الجزائر، مثل: (الكفاح، الجهاد، الاستعمار، الغربة، الوطن).

ومن أبرز ما يلفت نظر الدارس للشعر الجزائري الحديث المحافظة على القصيدة العمودية والإيقاع المعتمد على الوزن وذلك تحت تأثر عوامل أهمها إنضواء أغلبية الشعراء الجزائر تحت حركة إصلاحية.

هوامش البحث:

[1] .يراجع: أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب دا، ر صادر ، بيروت ط، 1 ،1992 ، مج2 ،ص275 ،276.

[2] .عبد الرحمان حجازي:الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي، لس الأعلى للثقافة ، القاهرة ط، 1 ،2005 ،ص20.

[3] .لسان العرب، ج6/ 196.

[4] .ميجان الرويلي وسعد البازعي دل: يل الناقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء بيروت ،ط 4 ، 2005 ،ص15.

[5] .ميجان الرويلي وسعد البازعي دل: يل الناقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء بيروت ،ط 4 ، 2005 ،ص15.

[6] .نزار بريك هنيدي: الخطاب الشعري في تجربة الحداثة السورية ، مجلة الموقف الأدبي،ع 405 ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005 ،ص48 ،49.

ميجان الرويلي وسعد البازعي دل: يل الناقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء بيروت ،ط 4 ، 2005 ،ص15.

[7] .محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص50 ،51.

[8] .محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص121

[9] .المرجع السابق: ص58.

[10] مفدي زكريا ،إلياذة الجزائر إعداد مربعي الطاهر، دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر ،9002، ص6.

[11] المصدر نفسه، ص7.

[12] المصدر نفسه، ص7..

[13] محمد بالقاسم خمار ، ديوان ،ص 124.

[14] جليل كمال الدين ،الشعر والثورة والحرية ، من كتاب الشعر والثورة مختارات من الأبحاث المقدمة مهرجان المدير الثالث 1974. ص 225 .244 .

[15] صالح خباشة ،الروابي الحمر ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1970، ص164 .

[16] محمد الأخضر السائحي ،همسات وصرخات ،المطبوعات الوطنية الجزائرية ،الجزائر ،4262، ص 47.

[17] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، 1961، ص 319.

[18] مفدي زكريا ، اللهب المقدس ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، 1961، ص 319.

[19] لثورة الجزائرية وصداها في العامل ،المركز الوطني للدراسات التاريخية (الملتقى الوطني الجزائري 24 .25 نوفمبر 1984) ص 77.

[20] مفدى زكريا ،اللهب المقدس ،ص 31/30.

[21] مفدى زكريا ،اللهب المقدس ،ص 56.

[22] صالح خريف ،أنت بلادي ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،1974، ص 13/12.

[23] .صالح خريف، الشعر الجزائري، ص 14.

[24] .محمد العيد، ديوان الشركة الوطنية الجزائر ،د.ت، ص 19.

[25] .محمد بالقاسم خمار، ديوان تراتيل حلم موجوع ، ص 526